منهج عليّ بن طاووس الحِلِّيّ
في فهم النصِّ القرآنيّ

أ.م.د. سلام عبد الحسن مجيبل
جامعة الكوفة/كليَّة التربية الأساسيَّة

Ali bin Tawoos Al-Hilli's Approach to Understanding the Qur'anic Text

Asst. Prof. Salam Abdul-Hassan Mujibil
University of Kufa/College of Basic Eduation

الملخَّص

للسـيِّد عليّ بن طاووس مكانة كبيرة، لكونه ينتمي إلى عائلة آل طاووس العلميَّة، عاش في فترة علميَّة وفكريَّة واسعة الاتِّجاهات، إذ عُدَّ مدرسة للشمول والسِّعة، وغزير إنتاجه في اهتمامه بأكثر من علم، إذ اهتمَّ بالتفسير والحديث والرجال والدعاء وغيرها، فشـغلها بسِـعة علمه، وجليل فكره. هذه المعلومات دفعتنا إلى الإلمام بتلك الفترة، وما صاحبهـا من نهضة علميَّة وفكريَّة وثقافيَّة؛ لبيان منهجـه في فهم النصِّ القرآنيّ، ناهيك عن معرفة رجالهـا وعلمائها وأبرز مفكِّريها، في حقبة متأخِّري خلفاء بني العبَّاس الذين عاصروه، ففي بحثنا اخترنا عالمًا من العلماء البارزين في القرن السـابع، وهو السيِّد ابن طاووس، إذ يعدُّ مدرسـة من المدارس العلميَّة الموسـوعيَّة؛ لشموله على معظم العلوم، كالفقه والأخلاق والتفسير.

تناولنا في هذا البحث منهج ابن طاووس في بيان النصِّ القرآنيّ، إذ يسلك الباحث المنهج النقليّ التحليليّ. وفي البحث نذكر بيان الكلمات المفتاحية مع ذكر نبذة مختصرة عن حياتـه، مع بيان أهمِّ التطبيقات لمنهجه، ثمَّ نختم بذِكر أهمِّ النتائج التي توصَّلنا إليها في البحث.

الكلمات المفتاحيَّة: المنهج، أقسام المنهج، ابن طاووس، التفسير، الفهم.

Abstract

Sayyid Ali bin Tawus has a great scientific status as he belongs to the scientific family of Al Tawus. He lived in a scientific and intellectual period with broad trends, as he was considered a school of comprehensiveness and breadth and his writings were abundant in his interest in more than one science, as he was interested in interpretation, hadith, men, supplication, and others, so he occupied them with the breadth of his knowledge and the greatness of his thought. This information prompted us to become familiar with that period and the scientific, intellectual and cultural renaissance that accompanied it, to clarify his approach to understanding the Qur'anic text, not to mention knowing its men, scholars and most prominent thinkers during the era of the late Abbasid Caliphs who were his contemporaries. In our research, we chose from the prominent scholars of the seventh century, Sayyid Ali bin Tawus, as he is considered a school of encyclopedic scientific schools for its comprehensiveness of most sciences such as jurisprudence, ethics and interpretation.

In this article, we discussed Ibn Tawus's approach to explaining the Qur'anic text, as the researchers follow the analytical, narrative approach. In the research, we mention the key words, along with a brief summary of his life. We also mention the most important applications of his approach, and then we conclude by mentioning the most important results we reached in the research.

Keywords: Methodology, sections of the method, Ibn Tawus, interpretation, understanding.

تمهيد
الكليَّات والمفاهيم

من الطبيعيِّ أنَّ عمليَّة التفسير سارت في عدَّة مراحل من التطوُّر، وهذا لا يكاد يخلو منه علم من العلوم، من حيث الشكل الهيكليّ، وكيفيَّة المضمون. ففي عصرنا الحالي أصبحت العناية أكثر عند علماء التفسير، في تحديد المنهج وبيانه، والخطَّة التي يعمل عليها ويطبِّقها المفسِّر في تفسيره للنصِّ القرآنيّ، من الأصول التي يعتمدها وينطلق منها قبل الدخول في عمليَّة التفسير، وتكون الركيزة الأولى والمعتمَد عليها في عمليَّة التفسير لدى المفسِّر.

انطلاق المفسر من منهج واضح في تفسيره، له من الأهميَّة في معرفة مدى حجيَّة هذا المنهج، والأصول التي اعتمد عليها وطبَّقها في بيان النصِّ وتفسيره.

تعريف المنهج لغةً واصطلاحًا

المنهج لغةً:

هو الطريق الواضح.

منهج مشتقَّة من الكلمة الثلاثيَّة نهج. «النهج: الطريق. ونهج لي الأمر: أوضحه. وهو مستقيم المنهاج. والمنهج: الطريق. والجمع: المناهج»[1].

(١) ابن فارس، مقاييس اللغة، ص١٠٠٠، والراغب الأصفهانيّ، المفردات، ص٨٢٥.

المنهج: هو خطوات منظَّمة يتَّخذها الباحث لمعالجة مسألة أو أكثر، ويتتبَّعها للوصول إلى نتيجة[١].

ذكر صاحب المعجم الوسيط أنَّ هناك ثلاثة مصطلحات تَرِدُ في بحوث الباحثين في هذا المفهوم، وهي: النهج والمنهاج والمنهج، لكلٍّ منها استخدامًا خاصًّا، فالنهج لغةً: الطريق المستقيم الواضح، والمنهاج: هو الخطَّة المرسومة، والمنهج: هو الطريق البيِّن إلى الحقِّ في أيسر سُبُله، والمنهاج والمنهج: الخطَّة المرسومة. ومنه منهاج الدراسة، ومنهاج التعليم، وجمع المنهج والمنهاج، مناهج[٢].

في القرآن جاء بمعنى الطريق لمعرفة دين الله سبحانه وتعالى، في قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ المائدة: ٤٨.

ذكر صاحب تحقيق كلمات القرآن الكريم «أنَّ الأصل الواحد في مادَّة المنهج هو: الأمر الواضح البيِّن، مادِّيًّا أو معنويًّا، سواء كان طريقًا أو برنامجًا أو جريانًا آخر، ومن مصاديقه: الطريق الواضح، الأمر البيِّن المشخَّص، البرنامج الواضح الجامع، الدين المستبين. ويدلُّ على ما ذكرناه من الأصل: توصيف الطريق والأمر والبرنامج وغيرها بالمادَّة، فيقال: طريق نهج، فلا يصحُّ وصف الطريق بنفسه، إذا كان النهج بمعنى الطريق»[٣].

فيتَّضح من هذه التعريفات اللغويَّة أنَّ المنهج ليس هو المعرفة، وإنَّما هو أداة للمعرفة، بمعنى يقدِّم المعرفة بقوالب معرفيَّة، أو أنَّ المعرفة تُنقَل بهذه الطرق، فكلَّما

(١) الجوهريّ، الصِّحاح، مادَّة نهج.
(٢) المعجم الوسيط، مادَّة نهج، ج٢، ص٩٦٦.
(٣) مصطفوي، حسين، التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ج١٢، ص٢٥٨.

كان الطريـق واضحًا، يكون أسرع في إيصال المعرفة. ولذلك المعرفة تعتمد على المنهج، وهـو ضروريّ في إيصـال المعرفة. فالتعريـف اللغويّ يقودنـا إلى أنَّ المنهج هو الطريق الواضـح، وهذا الوضوح في الطريق نتيجة، فلا بدَّ من وجود تخطيط وعوامل للوصول إلى أقـصر طريق وأوضح الطرق في نقل المعرفة، فيكون المنهج من أدوات المعرفة المهمَّة في علم التفسير.

المنهج اصطلاحًا:

هـو الطريـق المـؤدِّي إلى الكشـف عـن الحقيقـة في العلـوم، بوسـاطة طائفة من القواعـد العامَّـة التي تهيمن على سـير العقل، وتحديـد عمليَّاته، حتَّى يصـل إلى نتيجة معلومة[1].

وهنا عبَّر بالقاعدة، ويرد به الأساس أو الأصل.

وعرَّفه آخر بـ«طائفة من القواعد العامَّة المصوغة؛ من أجل الوصول إلى الحقيقة في العلم»[2].

وقد حدَّ العلماء المنهج بأنَّه فنُّ التنظيم الصحيح لسلسـلة من الأفكار العديدة، إمَّا مـن أجل الكشـف عن حقيقة مجهولـة لدينا، أو من أجل البرهنة عـلى حقيقة لا يعرفها الآخرون[3]، وهنا عُبِّر عنه بأنَّهُ واسـطة في نقل المعرفة بصورة واضحة بالكشف عنها، وكذلك البرهنة عليها، وهذا هو عمل المنهج بصورة عامَّة.

المنهج: هو خطَّة منظَّمة واضحة للوصول إلى هدف معين[4].

(١) عبد الرحمن البدوي، مناهج البحث العلمي، ص٥.
(٢) عناية، مناهج البحث، ص٧٦.
(٣) محمَّد زيان عمر، البحث العلميّ، ص٤٨.
(٤) محمَّد عليّ أسدي نسب، المناهج التفسيريَّة عند الشيعة والسنَّة، ص١٨.

عـرَّف أحد العلـماء المعاصرين المنهـج، بأنَّه: «الاسـتفادة من الوسـائل والمصادر الخاصَّة في تفسير القرآن، والتي يمكن من خلالها تبيين معنى ومقصود الآية، والحصول على نتائج مشـخَّصة. وبعبارة أخرى: كيفيَّة كشـف واسـتخراج معـاني ومقاصد آيات القرآن الكريم»[1].

وهـذا التعريـف، كما ترى، تعريف عام وشـامل، بحيث يدخل فيـه الإغيار لعدم الضابطة.

وعرَّفـه الدكتور طلال الحسـن، بأنَّه: «طريقة الاسـتدلال أو الكيفيَّـة المعتمدة في الاسـتدلال على إثبات المطلوب، فمن يعتمـد الأدلَّة العقليَّة في إثبات المطلوب، منهجه عقليّ، كما هو الحال في فلسـفة المشـاء، ومن يعتمد الأدلَّة النقليَّة في ذلك، فمنهجه نقليّ، ومـن يعتمـد التجربة في إثبات مدَّعـاه، فمنهجه تجريبيّ، وهكـذا. وكلُّ أصحاب هذه المناهـج المختلفة يُقيـم الدليل عـلى مدَّعاه، ومع غيـاب الدليل، يكون غيـاب المنهج، فالمنهـج يُراد بـه الدليليَّة بنحوٍ ما، فكما أنَّ الدليل هو الطريـق الواضح لإثبات المدَّعى، فكذلك المنهج، ومعنى كون الإنسـان يفتي أو يدَّعي بـدون دليل، هو أنَّه بدون منهج، فالمنهـج هو مجموعـة القواعد أو الضوابـط المفضي إلى نتائج حتميَّة لهـا عند عدم وقوع الخطأ في استعمالها»[2].

ونخلـص من هـذه التعريفات إلى أنَّ المنهج، هو: مجموعـة من الأصول والقواعد العامَّـة، يعتمدها الباحث في تنظيم ما لديه من أفكار أو معلومات، من أجل أن توصله إلى النتيجة المطلوبة.

(١) رضائي، محمَّد عليّ، دروس في المناهج والاتِّجاهات التفسيريَّة للقرآن، ص١٨.
(٢) طلال الحسن، منطق فهم القرآن، ج١، ص٤١.

أقسام المنهج

قُسِّم المنهج إلى عدَّة تقسيمات، بحسب لحاظٍ واعتبارات، لذا ذكر العلَّامة الفضليّ في تاريخ المنهج أنَّه: «يرتبط تاريخ المنهج بتاريخ التفكير، ذلك أنَّ البحث يعني التفكير، والمنهج يعني الطريقة، وكلُّ تفكير، بدائيًّا كان أو غير بدائيّ، أصيلًا أو غير أصيل، لا بدَّ من اعتماده على طريقة تساعده في الوصول إلى النتيجة.

ومن هذا نستطيع أن نقول: إنَّ المنهج كان توأم التفكير في الولادة، فإذن هو قديم قِدَم التفكير، كما أطلق عليه بعض العلماء بالمنهج التلقائيّ في مقابل المنهج التأمُّليّ»[1].

ولهذا قُسِّم المنهج على عدَّة أقسام، وبحسب اعتبارات، نذكر أهمّها:

التقسيم الأوَّل. باعتبار نظريَّة المعرفة، إلى أربعة أنواع[2]:

١. المنهج العقليّ: هو المنهج الذي يستند إلى القواعد العقليَّة وآليات التفكير المنطقيّ في إنتاج المعرفة، ويستخدم في البحث الفلسفيّ والأصوليّ والكلاميّ.

٢. المنهج النقليّ: وهو المنهج الذي يعتمد فيه الباحث على النصوص الدينيَّة من آيات قرآنيَّة أو روايات لإثبات المطلوب في الميدان المعرفيّ الذي يستخدمه فيه، كالعقيدة والفقه والأخلاق.

٣. المنهج التجريبيّ: ويتمثَّل بالطريقة المعتمدة على الاستقراء العلميّ والتجربة في دراسة الظواهر الطبيعيَّة، أو الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة والسياسيَّة والتربويَّة.

(١) الفضليّ، مناهج البحث العلميّ، ص٥١.
(٢) الفضليّ، مناهج البحث العلميّ، ص٥٢-٦٠.

٤. المنهج الوجداني: هو المنهج الذي يعتمد على الكشوفات والإلهام.

التقسيم الثاني. باعتبار المصدر:

١. منهج تفسير القرآن بالقرآن.

٢. منهج تفسير القرآن بالسنَّة.

٣. المنهج الاجتهاديّ.

٤. المنهج اللغويّ.

٥. المنهج الإشاريّ.

٦. المنهج العلميّ.

٧. المنهج التاريخيّ[١] [٢].

وبهذا يكون معنى المنهج هو الخطة العلميَّة التي يضعها الباحث من خلال وضع الأصول والقواعد المدروسة، ويشمل جميع العلوم الإنسانيَّة، وليس فقط علم التفسير.

فمعنى منهجيَّة المفسِّر أو الباحث في مجال التفسير؛ هي الخريطة التي يعتمدها في تفسيره، وهذه الخريطة لها أصول ومبانٍ وقواعد يعتمد عليها، وكذلك طرق وأساليب يلتزم بها المفسِّر في تفسيره.

(١) البحث العلميّ قواعده ومناهجه، ص٥١.

(٢) ينظر: رضائي، محمَّد عليّ، دروس في المناهج والاتِّجاهات، تعريب: قاسم البيضانيّ، ص٩٢-٢٠٧. وينظر: منطق تفسير القرآن، رضائي، تعريب: الأزرقي، وأبو خمسين، ص٣٩-٧٧.

المبحث الأوَّل

نبذة تاريخيَّة عن حياة السيِّد عليّ بن طاووس الحِلِّيّ

السيِّد الشريف رضيّ الدين أبو القاسم عليّ بن سعد الدين أبي إبراهيم موسى بن جعفر بن محمَّد بن أحمد بن محمَّد بن أحمد بن أبي عبد الله محمَّد بن محمَّد بن الطاووس، يعود نسبه إلى الإمام الحسن بن عليّ عليه السلام بثلاث عشرة واسطة، ينتهي نسبه الشريف إلى الحسن المثنَّى.

ولِد في الحِلَّة في منتصف محرَّم الحرام سنة ٥٨٩هـ، ونشأ فيها سنين، وأقام ببغداد خمسة عشر عامًا في زمن العبَّاسيِّين، ثمَّ رجع إلى الحِلَّة، وجاور العتبات المقدَّسة في النجف وكربلاء والكاظميَّة، في كلٍّ واحدة ثلاث سنين، وأقام في مدينة مشهد مدَّة ثلاث سنين، وكان عازمًا على مجاورة سامرَّاء أيضًا ثلاث سنين، وكانت يومئذ سامراء كصومعة في بريَّة، وأخيرًا عاد إلى بغداد باقتضاء المصالح في دولة المغول، وولِّي نقابة الطالبيِّين بالعراق في ثلاث سنين وأحد عشر شهرًا، من قِبَل (هولاكو) في سنة ٦٦١هـ، مع امتناعه الشديد عن ولاية النقابة في زمان المستنصر.

عاد السيِّد ابن طاووس في الأيَّام الأخيرة من حياته إلى موطنه الأم الحِلَّة، لتكون آخر موطن يقطنه قبل وفاته في الاثنين الخامس من ذي القعدة سنة ٦٦٤هـ، عن عمر ناهز الخامسة والسبعين، وبرغم أنَّه قد ذكر في كتاب فلاح السائل ونجاح المسائل بأنَّه أشرف على حفر قبره بجوار مضجع أمير

المؤمنين[1]، إلَّا أنَّه بحسب ديوان الوقف الشيعي في العراق، يقع مرقده في مدينة الحِلَّة[2]، توفِّي سنة ٦٦٨هـ[3].

والده السيِّد موسى بن جعفر من كبار المحدِّثين، ضبط الأحاديث التي رواها في قصاصات ورقيَّة، ثمَّ جمعها ابنه تحت عنوان فرحة الناظر وبهجة الخاطر ممَّا رواه والدي موسى بن جعفر.

أمَّا جدُّه لأمِّه فهو ورَّام بن أبي فراس، أحد علماء الإماميَّة، كما ينتسب ابن طاووس إلى الشيخ الطوسيّ من جهة المصاهرة بين جدِّه السيِّد جعفر والشيخ الطوسيّ على إحدى ابنتَيه، كانت أُمُّه بنت الشيخ ورَّام بن أبي فراس، وأُمُّ والده سعد الدين بنت ابنة الشيخ الطوسيّ شيخ الطائفة، ولذا يذكر كثيرًا في تصانيفه ومؤلَّفاته عن الشيخ الطوسيّ بالجدِّ أو جدِّ والدي، وعن الشيخ أبي عليّ الحسن بن الشيخ الطوسيّ بالخال أو خال والدي[4].

لقِّب بالطاووس؛ لأنَّ أحد أجداده، وهو السيِّد أبو عبد الله أحمد بن محمَّد، كان مليح الصورة، وقدماه غير مناسبة لحسن صورته، وقد لقِّب بـ(ذي الحَسَبَين)؛ لأنَّ نسبه ينتهي إلى داوود بن الحسن المثنَّى بن الحسن عليه السلام؛ فإنَّ أمّ داوود بن الحسن المثنَّى، هي أمُّ كلثوم بنت عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليهم السلام[5]، وبذلك اشتهرت هذه العائلة بالسادة الحسنيَّة الحسينيَّة؛ لانتمائها من قبل الأب إلى الإمام الحسن عليه السلام، ومن قبل الأم إلى الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام.

(١) ابن طاووس، فلاح السائل ونجاح المسائل، ج١، ص٧٤.
(٢) موقع الأمانة العامَّة للمزارات الشيعيَّة، التابع لديوان الوقف الشيعي، مزار السيِّد ابن طاووس.
(٣) راجع: موارد الإتحاف، ج١، ص١٠٧-١٠٨.
(٤) القمِّيّ، الكنى والألقاب، ج١، ص٣٤١.
(٥) روضات الجنَّات، الخوانساريّ، ج٤، ص٣٢٥.

درس السيِّد ابن طاووس مقدِّمات العلوم على يد كبار العلماء، أبرزهم جدُّه السيِّد موسى بن جعفر، وجدُّه لأمِّه ورَّام بن أبي فراس الحِلِّيّ، وابن نما الحِلِّيّ، وفخار بن معد الموسويّ، ووالده الشيخ يوسف سديد الدين. وقد تميَّز بذكائه وتفوُّقه على أقرانه في تحصيل العلوم، إذ ذكر في كتابه كشف المحجَّة «فإنَّني اشتغلت بعلم الفقه، وقد سبقني جماعة إلى التعليم بعدَّة سنين، فحفظت في نحو (سنة) ما كان عندهم، وفُضِّلت عليهم بعد ذلك بعناية ربِّ العالمين»[1].

صنَّف السيِّد بن طاووس ما يقرب من خمسين مؤلَّفًا، أغلبها في الدعاء والزيارات، وكان عنده مكتبة تحتوي على ١٥٠٠ كتاب، انتهل منها في تدوين مصنَّفاته، وقد طبع الكثير من مصنَّفاته، ولم يزل بعضها الآخر مخطوطات لم تطبع. ومن أبرز مؤلَّفاته كشف المحجَّة لثمرة المهجة، مصباح الزائر، الملهوف على قتلى الطفوف، ونهج الدعوات ومنهج العبادات، وسعد السعود، ومصباح الشريعة، وغيرها.

من أبرز تلاميذه والد العلَّامة الحِلِّيّ الشيخ سديد الدين الحِلِّيّ، والعلَّامة الحِلِّيّ، والحسن بن داوود الحِلِّيّ، وعبد الكريم بن أحمد بن طاووس، وعلي بن عيسى الإربلِّيّ[2].

كتب التفسير عند ابن طاووس

أهمُّ كتب ابن طاووس في التفسير هو كتابه سعد السعود، الذي يذكر فيه مواضيع عقديَّة وتاريخيَّة، يستدلُّ عليها من النصِّ القرآني، ولا يعتبر الكتاب تفسير ترتيبيّ لكلِّ الآيات القرآنيَّة، وإنَّما هو مختصر على المواضيع التي بحثها السيِّد ابن طاووس، حيث ذكر في مقدِّمة الكتاب «ومن فوائده أنَّ من دخل بستانًا لا يقدر على التطواف في سائر

(١) ابن طاووس، كشف المحجَّة لثمرة المهجة، ص١٨٧.
(٢) راجع، الطهرانيّ، الذريعة، ص١١٧.

أقطـاره، والأكل من جميع أثماره، فجاءه الغارس من كلِّ شـجرة بثمرة وبعض أغصانها النـضرة، فيكون قد كفَّـف عنه من تعب التطـواف، وأكرمه بما جمع بـين يديه من النَّماء والأطراف»[1].

إنَّ قائمـة مؤلَّفات السـيِّد ابن طاووس تشـير إلى تنـوُّع معارفه الدينيَّـة والتربويَّة والدنيويَّـة، حتَّى أنَّـه قد تناول بعضها في علـوم الطبِّ[2]، فضلاً عن أنَّـه فقيه، مؤرِّخ، أديب، شارك في بعض العلوم الأخرى[3].

وكانت له مكتبة ثمينة، فكان في سـنة ٦٥٠هـ، عند تأليفه (الإقبال) يملك ١٥٠٠ مجلَّدًا، وألَّف كتاب (سـعد السـعود للنفوس) في تأريخ القرآن، وفهرسًـا لبعض كتب مكتبته، وذكر فهرس بعض تأليفاته في كتاب (الإجازات لكشف طرق المفازات)، طُبع بعضه في مجلَّد (إجازات البحار)[4].

أبـرز عمل قام بـه ابن طاووس مشـاركته الوفد الحِـلِّيّ الـذي زار هولاكو لطلب الأمـان للمـدن المقدَّسـة والمطهَّـرة، النجـف وكربـلاء ومدينـة الحِلَّة، بعـد أن هرب أكثـر سـكَّانها إلى البطائح؛ خوفًا من بطـش هولاكو، وتمَّ عقد الصلح معه، وسـلمت الحِلَّـة والنجف وكربلاء من تدمير محقَّـق[5]. ولـمَّا تمَّ احتلال بغـداد، أمر هولاكو أن يسـتفتي العلماء في أيُّهما أفضل السـلطان الكافر العادل، أم السـلطان المسلم الجائر؟ ثمَّ جمع العلماء بالمسـتنصريَّة، وطرحت هـذه الفُتيا عليهم، فأحجموا عـن الجواب، وكان السيِّد رضي الدين متصدِّرًا ذلك الجمع محترَما، فلمَّا رأى إحجامهم، تناول الفُتيا ووضع

(١) ابن طاووس، سعد السعود، ص٥.
(٢) الحكيم، حسن عيسى، مدرسة الحِلَّة العلميَّة، ص١٦٤.
(٣) كحالة، معجم المؤلِّفين، ج٧، ص٢٤٨.
(٤) الطهرانيّ، الذريعة، ج٣، ص١١٨.
(٥) السيِّد ابن طاووس، الإقبال، ص٥٨٨.

خطَّـه عليها بتفضيل العادل الكافر على المسـلم الجائر، فوضـع العلماء خطوطهم عليها مُقتدين به؛ لشـخصيَّته العلميَّة الرصينة، فهو لا يخشـى لومة لائم في سـبيل الحقِّ، وقد سبَّبت فُتياه هذه خيرًا للأمَّة، وأشار السيِّد إلى ذلك بقوله: «ظفرت بالأمان والإحسان، وحُقنـت فيـه دماؤنا، وحُفظت فيه حرمنا وأطفالنا ونسـاؤنا، وسـلم عـلى أيدينا خلق كثير»[1].

الزمان والبيئة التي تحيط بتفسير ابن طاووس

يذكـر علماء التفسـير أنَّ السـيِّد ابن طـاووس من علماء تفسـير القرن السـابع، إذ كانـت نهايـة القرن السـادس ومجموع القرن السـابع عـصر البؤس والدمـار، ومن ثمَّ شـرّ القرون وأسـوأها بالنسـبة إلى المسـلمين، فقد حلَّ بالمسـلمين فجائـع ونكبات لم يسـجِّل التاريخ لواحـد من الأُمم مثلها، فبينما كانت الحـروب الصليبيَّة لا تزال طاحنة ومشـتعلة في أواخر القرن السـادس، ينتصر فيها المسـلمون على العدو الصليبيّ في مدَّة بعـد مدَّة، إذ بـدأت الحملات الأخرى من جانب الشرق على يـد التتار والمغول، فكان مختتم الحروب الصليبيَّة مبدأ للحروب الوثنيَّة على يد عَبَدة الشـمس والكواكب، وكان هـذا يعكس اتِّفاق الصليب والصنم، وبالتـالي الصليبيِّين والوثنيِّين على تدمير الحضارة الإسلاميَّة.

وفي سنة ٦١٦هـ قصد جنكيز خان البلاد الإسلاميَّة ودمرها هو وأولاده وأحفاده، عـصرًا بعد عصر، وقد هجـم هولاكو على مركز الخلافة العبَّـاسيّ ببغداد عام ٦٥٦هـ، ففتحـوا البلـد، وقتلوا جميع مـن قدروا عليه من الرجال والنسـاء والصبيان والمشـايخ والكهول والشـبَّان. وقد امتدَّ الدمار إلى أواخـر القرن الثامن، وقد أدَّى ذلك إلى مجزرة للمسـلمين عامَّـة، والعلماء من بينهم خاصَّـة، فأُحرِقت مكتباتهـم، ودُمِّرت آثارهم في

(١) السيِّد ابن طاووس، اليقين، ص٦٥.

ذينك القرنَين، إذ ابتدأت الحروب التتريَّة عام ٦١٦هـ، وانتهت عام ٨٠٧هـ، بموت تيمورلنك[١].

فكان ابن طاووس مخضرم عهدَين متميِّزين ومهمَّين، حيث نهاية دولة بني العبَّاس وبداية العهد الأيلخانيّ، وإن قضى معظم حياته في دولة العبَّاسيِّين، فشهد حقبة أربعة من خلفائهم المتأخِّرين، وهم: الناصر لدين الله (٥٧٥-٦٢٢هـ)، والظاهر بأمر الله (٦٢٢-٦٢٣هـ)، والمستنصر بالله (٦٢٣-٦٤٠هـ)، والمستعصم بالله (٦٤٠-٦٥٦هـ». سقطت الخلافة العبَّاسيَّة سنة ٦٥٦هـ، التي عاشت أكثر من خمسة قرون باحتلال هولاكو وقتله الخليفة المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيِّين في العراق، وعلى هذا امتدَّت حياة ابن طاووس لأكثر من سبع وستِّين سنة في ظلِّ الخلافة العبَّاسيَّة، وثماني سنوات تحت هيمنة الدولة الأيلخانيَّة[٢].

(١) راجع: السبحانيّ، جعفر، مفاهيم القرآن، ج١٠، ص٤٠٨.
(٢) ابن الطقطقيّ، في الآداب السلطانيَّة والدول الإسلاميَّة، ص٢٣٢.

المبحث الثاني

منهج ابن طاووس في التفسير

ذكرنا فيما سبق أنَّ الحقبة التي عاصرها السيِّد ابن طاووس في القرن السابع الهجريّ تعدُّ من أسوأ القرون التي عصفت بتاريخ الأمَّة الإسلاميَّة المتمثِّل بالغزو الصليبيّ الذي كان في أوجه، ومن ثمَّ الغزو المغوليّ الهمجيّ، فضلًا عمَّا كانت عليه الأحوال الداخليَّة من نزاعات بين الملوك والسلاطين، وبرغم كلِّ ذلك استطاع ثلَّة من العلماء الأكابر، أمثال السيِّد ابن طاووس، أن يدوِّنوا التاريخ ويسطِّروه؛ ليبقى محفوظًا للأجيال اللاحقة، وصونًا لتراث الأمَّة الإسلاميَّة.

يعدُّ كلّ ما ألَّفه السيِّد بن طاووس قائم على مصدَرَين وأساسَين، هما النصُّ القرآنيّ، وهو الثقل الأكبر، وعِدل القرآن، وهو النبيّ صلى الله عليه وآله، وأهل بيته عليهم السلام. هذا بالنسبة للعرض العام، أمَّا بخصوص ما كتبه في علم التفسير، فهو كتاب (سعد السعود)، إذ كتبه في أواخر حياته، سنة ٦٥٦هـ.

ما اعتمده ابن طاووس في كتابه يعتبر بحسب التصنيف العلميّ المعاصر، هو تفسير موضوعيّ، إذ تناول أهمّ إشكالات زمانه عرضًا ونقدًا، هذا من ناحية الأسلوب الذي اعتمده، أمَّا من ناحية المصدر الذي اعتمده في هذا الأسلوب، فكان المصدر الحديثيّ، ونقل من مصادر الكتب السماويَّة الأخرى في بعض المسائل التي عرض لها، وبهذا يكون منهجه في تفسيره نقليًّا.

إذ عدَّ بعض الباحثين أنَّ الطريقة التي سار عليها السيِّد بن طاووس هي «لخَّص الغاية من هذا التصنيف، بأنَّه يذكر هذا الكتاب من كلِّ كتاب وقفه على أولاده الذكور، مستخرجًا من كلِّ واحدٍ منها فائدة دينيَّة نافعة، مع تعيين الصفحة والسطر المكتوب فيها هذه الفائدة، حتَّى لا يبطل أحد بعده وقفيَّة الكتاب»[1].

ذكر بعض الباحثين عن هدف منهج ابن طاووس في النصِّ القرآنيّ، فقال: «هناك هدف أسمى من تأليف هذا الكتاب، لم يصرِّح به المصنِّف، وهو أنَّ ابن طاووس، بهذه الطريقة من التأليف، ابتدع نوعًا جديدًا لم يؤلَّف من قبل، وهو ردُّ الشبهات ومناقشتها، حيث انتقى من كلِّ كتاب المطالب الحسَّاسة ذات الصلة بالعقائد والمسائل التي صارت موردًا للشبهة والنقاش، وعمل على مناقشتها وردِّها إن كانت تستحقُّ ذلك، وبيَّن زيفها، وأخذ من الكتب المطالب المؤيِّدة للمذهب الحقِّ، وشرحها ووضَّحها، وألزم المخالفين بها»[2]

ما يتمتَّع به السيِّد ابن طاووس من تهذيبٍ للنَّفس عامل في بيان المراد الاستعماليّ من النصِّ القرآنيّ، إذ يذكر «من النِّعم التي أمر الله تعالى بالحديث عنها والتعظيم لها؛ أنَّه ألهمني معرفته بطريق لا يحتمل خطر التلبيس، ولا يشتمل عليه كدر التدليس، ومن عرفني بالعيان ونور الإيمان، وجد لسان الحال مصدِّقًا هذا المقال، واستغنى بالوجدان عن إقامة البرهان، وقد أشرت في بعض كتبٍ اغترفتها من بحار كرم المالك واللطيف، إلى طرف من كيفيَّة ذلك التعريف»[3].

وخير مَن علَّق على ما يتَّصف به ابن طاووس من فضيلة العلَّامة الطهرانيّ، إذ قال: «فجعله الله تعالى قدوة لعباده.. ورسَّخ في قلوبهم من التدبُّر في كتبه العلميَّة، من قوَّة

(١) الطهرانيّ، الشيخ آقا بزرك، الذريعة، ج٢٦، ص٢٤٩.
(٢) د. محمَّد الجبوريّ، عبَّاس نعمان، مجلَّة مركز بابل، العدد١، ص٧.
(٣) ابن طاووس، رضي الدين عليّ، كشف المحجَّة، ج١، ص١٢٤.

اليقين والجزم بعقائد الدين، ما لا يزيله شبه المعاندين، وضلالات المبدعين، وبالجملة قد ثبت للسيِّد بن طاووس حقّ عظيم على كافَّة المسلمين بما دلَّهم في تصنيفه إلى معرفة ربِّ العالمين.. آخذًا جميع هذه التعليمات عن معادن العلوم الدينيَّة، وأهل بيت الوحي والعصمة، المرويَّة عنهم في الأصول والكتب المعتبرة التي هيَّأها الله تعالى له، ولم يصل إلينا منها إلَّا النذر اليسير»[1].

المنهج العقليّ عند السيِّد بن طاووس في تفسيره، إذ يذكر أنَّ القرآن الكريم يفهمه العقلاء؛ لأنَّه أُرسل إليهم، فيجب أن يتدبَّروا في آياته، ويأخذوا العِبر منه، كما في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ القصص: ٨٣، معلِّقًا على ذلك: «وهذا حال عظيم يدلُّ عليه العقل المستقيم»[2]، إذ عدَّ أنَّ لسان هذه الآية الشريفة هي إشعار وبيان للعقلاء أصحاب الفطرة السليمة، التي تأبى فعل المعاصي والقبائح؛ لأنَّ العقل السليم يستقبح فعل القبيح، وهنا تشير الآية إلى حكم العقل الحاكم بترك القبيح وفعل الحسن.

هذه الآية إرشاديَّة لما في العقل السليم، ويذكر رواية عن الإمام أبي عبد الله عليه السلام، قال: «**يا حفص والله ما أنزلت الدنيا من نفسي إلَّا منزلة الميتة، إذا اضطررت إليها أكلت منها، يا حفص إنَّ الله تبارك وتعالى علم ما العباد عاملون، وإلى ما هم صائرون، فحلم عنهم عند أعمالهم، لعلمه السابق فيهم، وإنَّما يعجل من لا يعلم، فلا يغرَّك حسن الطلب ممَّن لا يخاف الفوت**.. ثمَّ تلى هذه الآية»[3].

وعلَّق على هذه الآية بعض علماء التفسير: «وإرادة الفساد فيها ابتغاء معاصي الله تعالى، فإن الله بنى شرائعه، التي هي تكاليف للإنسان، على مقتضيات فطرته وخلقته،

(١) الطهرانيّ، اقا بزرك، الذريعة، ج٢، ص٦.
(٢) ابن طاووس، عليّ، سعد السعود، ص٢٠١.
(٣) القمِّيّ، عليّ بن إبراهيم، تفسير القمِّيّ، ج٢، ص٢٠.

ولا تقتضي فطرته إلَّا ما يوافق النظام الأحسن الجاري في الحياة الإنسانيَّة الأرضيَّة، فكلُّ معصية تقتضي إلى فساد في الأرض بلا واسطة أو بواسطة»[1].

هنا يذكر السيِّد ابن طاووس: «العقل السليم الفطريّ الذي يوافق النصَّ القرآنيّ والأحاديث الشريفة وشواهد علماء التفسير بذلك. ويردُّ على أصحاب الرأي العقليّ في بيان الآيات، ويحكمون عقولهم القاصرة، دون الرجوع إلى النصوص والروايات والقرائن القطعيَّة الأخرى، إذ ردَّ على التفسير بالرأي لأبي عليّ الجبائيّ في قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴾ يونس: ٢٨.

إنَّ قوله تعالى يعني (ما كنتم تعبدوننا بأمرنا)، تحكُّم عظيم على الله جلَّ جلاله، ولعلَّ العقول السليمة لا تقبل أنَّ الأحجار والأصنام تقول لهم: ما كنتم تعبدوننا بأمرنا؛ لأنَّ الأمر ما كان يشتبه أنَّهم كانوا يعبدونهم بأمرهم»[2].

وبهذا يظهر أنَّ الأصل العقليّ في التفسير لا يتعارض مع النقل، ولاسيما الأحاديث والروايات عند السيِّد ابن طاووس، بل كلاهما أصلان معتبران في فهم النصِّ القرآنيّ.

ردُّ شبهة التحريف في النصِّ القرآني

نسب أبو عليّ الجبائيّ إلى الشيعة الإماميَّة الاثني عشريَّة القول بالتحريف، وهذه شبهة لا دليل عليها، إذ يردُّ السيِّد ابن طاووس على هذه الشبهة: «كلُّ ما ذكرته – الجبائيّ – من طعن وقدح على من يذكر أنَّ القرآن وقع فيه تبديل وتغيير، فهو متوجِّه على سيِّدك عثمان؛ لأنَّهم أطبقوا على أنَّه جمع هذا المصحف الشريف، وحرَّف وأحرق

(١) الطباطبائيّ، محمَّد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ج١٦، ص٨١.
(٢) ابن طاووس، عليّ بن موسى، سعد السعود، ص٣٥٦.

مـا عداه مـن المصاحف، فلـولا اعتراف عثـمان بأنَّه وقـع تبديل وتغيير مـن الصحابة مـا كان هناك مصاحف محرَّفة، وكانت تكون متسـاوية.. ولولا إقراره بالقرَّاء السـبعة، وهـم مختلفون في حروف وحـركات وغير ذلك، ولولا اختلافهم لم يكونوا سـبعة، بل كانـت هناك قراءة واحدة.. فمـن ترى ادَّعى اختلاف القرآن وتغيُّره؟ أنتم وسـلفكم، لا الرافضـة على حدِّ تعبيركم!! ومن المعلوم من مذهبنـا أنَّ القرآن واحد، نزل من عند واحد، صرَّح بذلك إمامنا جعفر بن محمَّد الصادق عليه السلام»[1].

كذلـك ردّه عـلى الجبائيّ في قوله: «إنَّك ادَّعيت في تفسـيرك أنَّ (بسـم الله الرحمن الرحيم) ليسـت من القـرآن، ولا ترونها آية من القرآن، وهي مئـة وثلاث عشرة آية في المصحف الشريف، تزعمون أنَّها زائدة، وليسـت من القرآن، وأنَّ عثمان هو الذي أثبتها فيه على رأس السور، فصلًا بين السورتَين، فهل هذا إلَّا اعتراف منك يا أبا عليّ بزيادتكم أنتم في المصحف الشريف زيادة لم تكن من القرآن ولا من آياته الكريمة؟»[2].

فقد نقل ابن طاووس في كتابه سـعد السعود بعض آراء أبي عليّ الجبائي المعتزليّ في تفسيره ونقدها، وقبل ذلك نقد منهجه في التفسير.

وهو ما ذكره آقا بزرك الطهرانيّ من أنَّ كتاب سـعد السعود كان هدف المؤلِّف من تأليفه «يتعلَّق بأحوال القرآن من كيفيَّة جمعه وتأليفه، وتفسير بعض مشكلاته، نقلًا عن بعض التفاسير»[3].

(١) ابن طاووس، عليّ بن موسى، سعد السعود، ص١٤٤.
(٢) ابن طاووس، سعد السعود، ص١٤٥.
(٣) الطهرانيّ، آقا بزرك، الذريعة، ج١٢، ص١٨٢.

الخاتمة

أهم النتائج التي توصَّل إليها البحث:

١. المنهج هو الطريق المؤدِّي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم بوساطة مجموعة من الأصول والقواعد العامَّة، يعتمدها الباحث في تنظيم ما لديه من أفكار أو معلومات؛ من أجل أن توصله إلى النتيجة المطلوبة.

٢. تعدُّ مكتبة ابن طاووس من أهمِّ المكاتب العلميَّة في زمانه، إذ تعجُّ بذخائر الكتب ونفائس الآثار، فهي ثروة عظيمة لا تقدَّر بثمن، ففيها أنواع من المصنَّفات، لذلك كانت كنزًا جامعًا لكتب التفسير والحديث والدعوات والأنساب والطبِّ وغيرها.

٣. إنَّ المنهج التفسيريّ لابن طاووس يعتمد النقل والعقل، ويردُّ على التفسير بالرأي، وأهم كتاب تفسيري له هو كتاب (سعد السعود)، إذ أوضح فيه «أنَّني لم أقسِّم الكتاب على أبواب وفصول، بل قدَّمته على هيئة روضة مزهرة تنمو فيها الفكرة وتزدهر، لأولئك الذين لديهم الفطرة السليمة والعقول المتفتِّحة»[1]، إذ جمع فيه عدَّة مواضيع، أهمها ثلاث؛ أوَّلها: نقل عن الكتب السماويَّة المتمثِّلة بالتوراة والإنجيل، إذ ناقشهم في التوحيد وإثبات النبوَّة للنبيّ محمَّدﷺ، بالبشارات الصريحة في كتبهم. ثانيها: ردُّ شبهات المعاندين

(١) ابن طاووس، سعد السعود، ص١١٢.

والمنحرفين من علماء المسلمين بالبراهين والحجج الواضحة. ثالثها: الفهرسة في آخر الكتاب التي عرَّف فيها المؤلِّف عن كتبه.

٤. يُعدُّ ابن طاووس من علماء تفسير القرن السابع الهجريّ، وله مساهمات فكريَّة كثيرة، في مجالات متنوِّعة، ولكن لم تصل إلينا؛ لفقدان تلك الكتب، امتاز السيِّد ابن طاووس بالنقد والتحليل، ولم يكن ناقلًا لتفاسير السابقين فحسب.

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم.

١. إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمَّد النجار، المعجم الوسيط.

٢. ابن فارس، أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: شهاب الدين أبو عمرو، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ.

٣. إعداد: مركز نون للتأليف والترجمة، البحث العلميّ قواعده ومناهجه، نشر: جمعية المعارف الإسلاميَّة الثقافيذَة، ط١، ٢٠١٦م.

٤. بدوي، عبد الرحمن، مناهج البحث العلميّ، دار النهضة العربيّ، ط١، القاهرة، ١٩٦٣م.

٥. الجوهريّ، إسماعيل بن حمَّاد، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربيَّة، ط٤، بيروت، ١٤٠٧هـ.

٦. الحكيم، حسن عيسى، مدرسة الحِلَّة العلميَّة ودورها في حركة التأصيل المعرفيّ، منشورات المكتبة الحيدريَّة، ط١، ١٤٣١هـ.

٧. الخوانساريّ، محمَّد باقر، روضات الجنَّات، تحقيق: أسد الله إسماعيليان، قم، ١٣٩١هـ.ق.

٨. الراغب الأصفهانيّ، أبو القاسم الحسين بن محمَّد، المفردات في غريب القرآن، دفتر نشر كتاب، ط٢، قم، ١٤٠٤هـ.

٩. رضائي، محمَّد عليّ، دروس في المناهج والاتِّجاهات التفسيريَّة للقرآن، تعريب: قاسم البيضانيّ، مركز المصطفى العالميّ، ط٤، قم، ١٤٣٧هـ.

١٠. رضائي، محمَّد عليّ، منطق تفسير القرآن، تعريب: أحمد الأزرقيّ وهاشم أبو خمسين، مركز المصطفى العالميّ، ط٥، قم، ١٤٣٨هـ.

١١. السبحانيّ، جعفر بن محمَّد حسين، مفاهيم القرآن، مؤسَّسة التاريخ العربيّ، ط١، بيروت، ٢٠١٠م.

١٢. السيِّد ابن طاووس، عليّ بن موسى، إقبال الأعمال، تحقيق: جواد القيُّوميّ الأصفهانيّ، مكتب الإعلام الإسلاميّ، ط١، ١٤١٤هـ.

١٣. السيِّد ابن طاووس، عليّ بن موسى، اليقين، تحقيق: الأنصاريّ، مؤسَّسة الثقلين لإحياء التراث الإسلاميّ، ط١، ١٤١٣هـ.

١٤. السيِّد بن طاووس، عليّ بن موسى، سعد السعود، منشورات الرضيّ، قم المقدَّسة.

١٥. السيِّد بن طاووس، عليّ بن موسى، فلاح السائل ونجاح المسائل، تحقيق: غلام محسن، دار الجواد، ط١، بيروت، ٢٠١١م.

١٦. السيِّد بن طاووس، عليّ بن موسى، كشف المحجَّة لثمرة المهجة، تحقيق: مهند حسون، مكتب الإعلام الإسلاميّ، ط٢، ١٤١٧هـ.

١٧. الطباطبائيّ، محمَّد حسين، الميزان في تفسير القرآن، مؤسَّسة الأعلميّ، ط١، بيروت، ١٤١١هـ.

١٨. الطهرانيّ، آغا بزرك أحمد الحسينيّ، الذريعة إلى تصانيف الشيعة، دار الأضواء، ط٣، بيروت، ١٤٠٣هـ.

١٩. عبد الهادي الفضليّ، مناهج البحث، مؤسَّسة أم القرى للتحقيق والنشر، ط١، قم.

٢٠. العلَّامة مصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن الكريم، مركز نشر أثار العلَّامة، ط١، طهران، ٢٠٠٧م.

٢١. الفخريّ، محمَّد بن عليّ بن طباطبا، في الآداب السلطانيَّة والدول الإسلاميَّة، دار صادر، من غير سنة إصدار.

٢٢. القمِّيّ، الشيخ عبَّاس، الكنى والألقاب، النجف الأشرف، نشر: حيدريَّة، ١٣٨٩هـ.

٢٣. القمي، عليّ بن إبراهيم، تفسير القمِّيّ، تحقيق: طيِّب الموسويّ الجزائريّ، ط٣، قم، ١٤٠٤هـ.

٢٤. كحالة، عمر بن رضا بن محمَّد، معجم المؤلِّفين، مؤسَّسة الرسالة، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، ١٩٩٣م.

٢٥. محمَّد فاكر ميبدي، قواعد التفسير لدى الشيعة والسنَّة، المجمع العالميّ للتقريب بين المذاهب الإسلاميَّة، ط١، طهران، ٢٠٠٧م.